

الميتافيزيقا في ميزان التحليل

أزمة معنى أم أزمة لغة

د. ليلي فرج عبد الحفيظ الرميح

الملخص

من أهم نتائج نظرية التحقق في المعنى إبعاد الدين كأحد العلوم المعيارية وبالتالي إبعاد فكرة العقيدة التي لا يمكن تصور الوجود البشري بدونها ؛ « فكل عقيدة تتضمن لاهوتاً يعتبر إلى حد ما نوع من الميتافيزيقيا » وقد أدى الحكم إلى الهجوم ليس فقط على الوضعية المنطقية ولكن على الفلسفة التحليلية بأكملها التي تلغي ساحة الميتافيزيقا وما تتضمنه من جملة القضايا الميتافيزيقا و العلوم المعيارية و يبلغ النقد الإنفعالي مداه لنظرية الوضعية المنطقية في المعنى واستبعادها للقضايا الميتافيزيقية حداً يصل إلى الحكم باضمحلال تصور الفلسفة عند هؤلاء التحليليين إلى حد أنها أصبحت طفيلية على العلم ، والعلم نفسه غني عن توضيحها . ورغم كل المحاولات السطحية لمدى ربع قرن من قبل الوضعية ، لم تقم مثل هذه الفلسفة أبداً ، بينما على النقيض انتعشت الميتافيزيقا في عصرها و أصبح الأسف على استحالة الميتافيزيقا مستحيلاً ...

تمهيد:

يقول الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه « خرافة الميتافيزيقا » : « إن كل عبارة ميتافيزيقية هي من أحد هذين النوعين ؛ فهي إما مشتملة على كلمة أو كلمات لم يتفق الناس على أن يكون لها مدلول بين الأشياء المحسوسة ، أو مشتملة على كلمة أو كلمات اتفق الناس على مدلولها لكنها وضعت في غير السياق الذي يجعلها تفيد معناها ، وإذا فاعل العبارة الميتافيزيقية فارغة من المعنى، وليس لنا يد من حذفها » (زكي، ص 5)، تضعنا المقولة السابقة أمام مسألة العلاقة بين نظريات المعنى والقضايا الميتافيزيقية ، وتشير هذه العلاقة العديد من التساؤلات منها: هل القضايا الميتافيزيقية ذات معنى أم أنها تفتقد

* عضو هيئة تدريس كلية الآداب جامعة طرابلس ليبيا

المعنى ، وعلى أساس أية نظرية من نظريات المعنى في الفلسفة التحليلية يتم استبعاد تلك القضايا وحذفها ؟

تتطلب الإجابة عن تلك التساؤلات دراسة نظرية "التحقق في المعنى" عند رواد الوضعية المنطقية "وذلك من خلال وجهة نظر كل من "جون الفرد آير" و "رودلف كارناب" مع بيان المقصود بالميتافيزيقا المستبعدة ، وأهم النتائج والانتقادات التي وُجّهت لتلك النظرية. أولاً - طبيعة الميتافيزيقا المستبعدة.

في الحقيقة إن البحث في تعريف الميتافيزيقا هو أمر في غاية الصعوبة رغم أنه يبدو عكس ذلك ؛ لأن الميتافيزيقا بالنسبة للفلاسفة ليس لها تعريف واحد ؛ فقد اختلفت تعريفات الميتافيزيقا لدى الفلاسفة باختلاف المواقف حولها ، وهو الأمر الذي أشار له كانط ؛ "فمشكلة الميتافيزيقا ليست - كما قال كانط - في عدم قدرتها على تحقيق مهمتها على النحو الذي يمكنها من التقدم بخطي ثابتة فتلحق بركب العلوم الطبيعية والرياضية ، وإنما هي في عدم وجود تعريف واحد عام للميتافيزيقا يكون في أذهان الذين ينادون باستبقاء الميتافيزيقا والذين يدعون إلى استبعادها على السواء ، مما يؤدي إلى تناقض الأحكام التي تطلق عليها الميتافيزيقا وتضاربها" (محمود رجب، 1966 ، ص 5) .

وعلى الرغم من رسوخ مبحث الميتافيزيقا في التاريخ الفلسفي ، فإنه مع ذلك كان أكثر مباحث الفلسفة تعرضاً للنقد والهجوم طوال تاريخه ، فهو في نظر كثير من الفلاسفة يمثل اغتراب الإنسان ومحاولة لاستلاب وجوده الحق بين جنبات هذا العالم ، فلقد كان الاهتمام بالميتافيزيقا في نظر كثير من الفلاسفة مرادفاً للانصراف عن عالم الإنسان ومشكلاته الحقة الواقعية.

ولقد تزايد هذا النقد للميتافيزيقا في العصر الحديث تحت تأثير النظريات العلمية التي اشتهرت آنذاك و يأتي على رأسها ميتافيزيقا نيوتن ، والتي أكدت أن العالم لا يسير بمحض الصدفة أو بمحض إرادة الإله ، بل يسير وفقاً لقوانين طبيعية حتمية ، وهو ما فتح المجال أمام فيلسوف كبير مثل "كانط" لأن يرفض إمكان قيام المعرفة الميتافيزيقية . فكتب يقول: "إن مقصودي أن أقنع سائر الذين يعدّون الميتافيزيقا مبحثاً جديراً بالدراسة ، بأنه يتحتم عليهم أن يتوقفوا عن عملهم مؤقتاً وأن يصرفوا النظر عن كل ما صنع حتى الآن ، وأن يضعوا أولاً السؤال التالي . هل من الممكن على الإطلاق قيام شئ كالميتافيزيقا" (محمود رجب، 1966 ، ص 10) ؟ هذا هو السؤال الأساسي في فلسفة كانط ، ولقد رأى الوضعيون

المناطق في "كانط" الأساس والدعم الفلسفي لرفضهم للميتافيزيقا، ورأوا أن السؤال الكانطي حول الميتافيزيقا هو سؤال يرفض الميتافيزيقا نفسها ، وهذا ما نجده عند «أير» الذي يقول: "على الرغم من أن "كانط" قد قبل الميتافيزيقا المتجاوزة ، فإنه قد فعل ذلك على خلفيات مختلفة ، لأنه قال: إن ذهن الإنسان يوقع نفسه في تناقضات عندما يحاول أن يتجاوز حدود الخبرة الممكنة ويحاول أن يتعامل مع عالم الأشياء في ذاتها . ولذلك أكد على استحالة قيام ميتافيزيقا متجاوزة ليس كما نفعل نحن على أنها موضوع للمنطق ، بل على أنها موضوع للواقع" (Ayer ، 1952 p 14).

وعند الوضعية المنطقية ليس من شأن الفلسفة أن تتعدى التحليل المنطقي للمفاهيم والرموز العلمية، بل لابد لها أن تقف عند حدود المعطيات الحسية حتى تكشف لنا عن قيمة الصدق في التركيب اللغوي ، معتمدة في ذلك على منهج التحليل المنطقي الذي يعمل على توضيح القضايا والعبارات ، حيث إن مهمة الفيلسوف هي تمييز العبارة الخالية من المعنى، من العبارة الدالة على المعنى. (Stebbing . p 32) وهذه هي الدعوة التي أعلنها «فتجنشتين» في الرسالة المنطقية الفلسفية (يجب أن تعني كلمة فلسفة شيئا ما إما أن يكون أعلى أو أدنى من العلوم الطبيعية ، ولكنها ليست - على كل حال - في مستواها والموضوع الذي تهتم به الفلسفة هو (التوضيح المنطقي للأفكار) فهي ليست نظرية من النظريات ، بل هي - في المقام الأول - فاعلية ونشاط. ولذا يتكون العمل الفلسفي من (توضيحات) ولا تكون نتيجة الفلسفة عددا من القضايا الفلسفية وإنما هي توضيح للقضايا» (فتجنشتين ، ص 83-91) ويرجع «أير» سبب وجود العبارات الميتافيزيقية التي يصفها بالمغالطات إلى عامل الانخداع بالأساليب النحوية المصطنعة في اللغة مما أدى إلى افتراض وجود كائنات أطلق عليها اسم الجوهر والوجود والمطلق..... الخ ، فهل يكفي أن يتطلب النحو توافر اسم يكون هو الفاعل في الجملة لكي نتوهم أن الفكر يستلزم أيضا بالضرورة وجود جوهر يكون بمثابة الموضوع الذي تُنسب إليه هذه الصفة» (زكريا إبراهيم ، ص 295)، وهو نفس الأمر الذي أشار إليه «جورج مور»، حيث تنشأ المشكلات الفلسفية عن طريق استعمال الفلاسفة للألفاظ والعبارات ، «إذ تراهم يستخدمون فيما بينهم اتفاقا مفهوما بالعرف على أن يستخدموا بها تلك الرموز اللغوية ، وبذلك تنشأ عبارات ليست بذات معنى مفهوم . وقد لا يظهر هذا الجانب إلا بعد التحليل فتؤخذ عند فلاسفة الميتافيزيقا على أنها مشكلات تستدعي التفكير والتأمل وتنتظر الحل والجواب والحق أنها أخلاط وأمشاج من رموز لا تدل على شئ ألبتة" (محمد مدين، ص 38).

من هذا المنطلق هاجمت الوضعية المنطقية الميتافيزيقا هجوماً شديداً ، وحاولت استبعادها من مجال البحث الفلسفي، لأن الحديث عن الكيانات الميتافيزيقية ما هو إلا حديث أساسه الخرافة ، ولا يمكن أن يكون إلا حديثاً فارغاً من المعنى ، يقول أير: «بشكل عام فإن التسليم بوجود ماهيات ليس لها وجود واقعي منشؤه الخرافة ، و كل كلمة أو جملة يمكن أن تكون لغوياً تابعة لعبارة ، فلا بد أن يكون هناك في مكان ما كينونة واقعية تستجيب لها ، كما لو أنه لا يوجد هناك مكان في العالم التجريبي للعديد من مثل هذه الكيانات فإن هناك عالماً غير تجريبي يتم استحضاره ليكون سكناً لهذه الكيانات ، لهذا الخطأ يجب أن يعزى ، ليس فقط لأقوال «هيدجر» الذي يؤسس ميتافيزيقاه على افتراض أن «العدم» هو اسم يستخدم ليرمز إلى شئ ما غامض على نحو ما ولكن أيضاً تفشي مثل هذه المشكلات ، التي تتعلق بواقعية القضايا عن الأكوان الفارغة من المعنى» (Ayer 1952 p 27). وواضح من الأقوال السابقة مدى تأثير «الرسالة المنطقية الفلسفية» على «أير». يقول «فتجنشتين»: «إن القضايا الميتافيزيقية ، هي القضايا التي توصف بأنها "كلام فارغ (non-sensical)» ، إن الداء المتأصل في الميتافيزيقا هو محاولة " أن تقول ما لا يمكن قوله". وأحد أسباب ذلك هو توهم الفلاسفة أن الصورة النحوية تناظر الصورة المنطقية : وهكذا تنشأ بسهولة أهم أنواع الخلط الفكري الذي تمتلئ به الفلسفة كلها» (فتجنشتين ص78).

ويعد "كارناب" الفيلسوف الأكثر تطرفاً في رفض قضايا الميتافيزيقا ، وعدم إظهار أي نوع من أنواع التعاطف مع قضاياها ، فلقد رفض الميتافيزيقا على أساس منهج التحليل اللغوي الذي إذا طُبّق على العبارات كشف عن وجود عبارات تشبه القضايا ، وبفحصها يتبين أنها فارغة من المعنى ، إما بسبب احتوائها على كلمات لا معنى لها ، أو لوجود كلمات ذات معنى صيغت بطريقة تخالف قواعد المنطق ، ولذلك يجب إبعادها لأنها خالية من المعنى ، والخلو من المعنى يُفهم على أساس أن قضايا الميتافيزيقا لا يوجد ما يقابلها في الواقع فلا يمكن التحقق منها . يقول "كارناب" : «إن كل من يشاركنا وجهة نظرنا المعادية للميتافيزيقا يتبين له أن جميع المشكلات الفلسفية بمعناها الحقيقي ما هي إلا تحليلات لتركيبات لغوية» (محمد مدين ص120). ويرى كارناب، أن أعداء الميتافيزيقا كثيرون منذ أيام اليونان إلى وقت الفلاسفة التجريبيين في القرن التاسع عشر، وكانت انتقاداتهم توجّه من وجهات نظر مختلفة : فقد رأى البعض أن الميتافيزيقا مذهب خاطئ ، لأنها تتناقض ومعرفتنا التجريبية ، وذهب البعض إلى أنها غير يقينية ، على أساس أن مشاكلها تتجاوز حدود المعرفة التجريبية، و رأى الكثيرون من أعداء الميتافيزيقا أن الاهتمام بالمسائل

الميتافيزيقية أمر عقيم لا جدوي منه. ومهما تعددت الاعتبارات ووجهات النظر التي يستند إليها أعداء الميتافيزيقا، فإن المنطق الحديث هو وحده - في رأي كارناب - القادر على تقديم إجابة دقيقة عما إذا كانت الميتافيزيقا ممكنة أم لا (محمود رجب، ص 239). وبالنسبة لـ «كارناب» فإن الميتافيزيقا تعبر عن حاجة المرء إلى تجسيدٍ لإتجاهه في الحياة، واستجابته العاطفية وإرادته للبيئة وللمجتمع والأعباء الملقاة على عاتقه والتي كرس لها حياته، والنكبات التي تهبط عليه. وكقاعدة فإن هذا الإتجاه يعبر عن نفسه بلا وعي في كل شيء يفعلُه الإنسان أو يقوله وفي ملامح وجهه بل حتى في طريقة سيره (محمد مدين، ص 119).

وإذا كانت الميتافيزيقا هي تعبير عن الحياة إلا أنها عند «كارناب» وسيلة عاجزة أو قاصرة للتعبير عن الحياة، فهو يذهب إلى أن الفن وخاصة الموسيقى، وسيلة مناسبة للتعبير عن الإحساس بالحياة، أما الميتافيزيقا فهي وسيلة قاصرة عاجزة عن القيام بذلك، فالميتافيزيقيون فيما يقول - موسيقيون بلا موهبة موسيقية (محمود رجب، ص ص 240-241)، وهكذا تكون الميتافيزيقا بالنسبة لكارناب هي تعبير عن موقف من الحياة، ولا تعبر عن موجود خارج نطاق المحسوس، والخطأ الأساسي عند الميتافيزيقيين إنما يكمن في ظنهم أن ما يقولونه من عبارات هي قضايا منطقية قابلة للبرهنة. يقول كارناب: «لا بد أن نميز بين وظيفتين مختلفتين من وظائف اللغة، فاللغة إما أن تعني شيئا أو قد تعبر عن بعض العواطف والرغبات. وقد دأبت الفلسفة الكلاسيكية على الخلط بين هاتين الوظيفتين مما ترتب عليه أن أصبحت ألفاظ الفلاسفة معبرة عن مجرد عواطف لا دالة على معان. ولكن الفلاسفة الميتافيزيقيين قد ظلوا يتوهمون أن عباراتهم تمثل (قضايا) منطقية تقبل البرهنة، في حين أنها مجرد تعبيرات عاطفية تكشف عن انفعالات ومشاعر دفية ولا تنطوي على دلالات أو معان منطقية» (محمد مدين، ص 120)

ولعل السبب الرئيسي لرفض الميتافيزيقا عند الوضعيين كما يقول د/ زكي نجيب محمود اعتبارها تعبر عن معانٍ كلية وفئات فارغة من المعنى؛ «فالميتافيزيقا بحكم تعريفها تقول قضايا عن معان كلية ليست بذات أفراد في هذا العالم - عالم الأشياء الجزئية - و إذن فهي تتحدث عن فئات فارغة، وبالتالي تستطيع أن تقول عن أي لفظة مما يرد في الميتافيزيقا ما شئت من صفات وخصائص، بل قل عن كل لفظة من تلك الألفاظ صفة ونقيضها، ولن تعدو حدود المنطق، فلعلك ترى بعد ذلك عبث المناقشة في القضايا الميتافيزيقية» (زكي، ص 41).

إن العبارات الميتافيزيقية لا تقابل واقعة ما موجودة في العالم ، ولا يمكن أن يدّعي الميتافيزيقي أنه يملك أي دليل من الخبرة الحسية للتحقق ممّا يقوله ، ولهذا يري "أير" أن الخلاف بين المثاليين والواقعيين هو خلاف زائف وليس له ما يبرره، ويضرب المثال الآتي ليوضح أن الخلاف بين المثاليين والواقعيين ما هو إلا تعبير عن رؤى ذاتية لا يمكن أن تزعم لنفسها الحقيقة بأي شكل من الأشكال. يقول "أير": "دعنا نفترض أن هناك صورة تم اكتشافها وهناك افتراض يقول أن "جويا" هو الذي رسم هذه الصورة ، هناك إجراء محدد للتعامل مع مثل هذا السؤال، الخبراء يختبرون الصورة ليروا كيف ، وبأية طرق تتفق مع الأعمال الأخرى لـ "جويا" ، وليروا إن كانت تحمل أي علامات مميزة تدل على التزييف، فهم يسجلون ملاحظات عن دليل وجود مثل هذه الصورة، و أشياء من هذا القبيل. وربما ظلوا في عدم اتفاق ، لكن كل واحد منهم يعلم ما هو الدليل التجريبي الذي سوف يثبت رأيه أو يبطله ، لكن دعنا نفترض الآن أن هؤلاء الناس قد درسوا الفلسفة (الميتافيزيقا)، وأن واحداً منهم تمسك بأن هذه الصورة هي مجموعة من الأفكار في عقل المتلقي، أو في عقل الإله، وقرر الآخرون أنها واقعية موضوعية، ما هي الخبرة الممكنة لأيّ منهم لتكون ملائمة لحل هذه المعضلة بطريقة أو بأخرى؟ في الحس العادي لمصطلح واقعي (real)، الذي فيه يكون مضاداً للوهمي (illusory)، فإن واقعية الصورة ليست في شك، والمتنازعون يقبلون بأن الصورة واقعية بهذا المعنى، من خلال التحقق منها بحاسة اللمس أو حاسة البصر» (22-23 pp . Ayer . 1952) بالتالي هل هناك أي إجراء مشابه يمكن من خلاله إثبات أن الصورة واقعية بالمعنى الذي يكون فيه واقعي ضد ما هو مثالي (ideal)؟.

وتقترب آراء الوضعية المنطقية مع آراء البرجماتية في رفضهما للقضايا الميتافيزيقية؛ فقد ذهب "بيرس" إلى التمييز بين نوعين من المشكلات، المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة، والأولى منها تحتل الحل، إن لم يكن الآن، فقد يكون ذلك في المستقبل، المهم أن يكون الحل ممكناً. أما المشكلات الثانية فهي مشكلات يستحيل حلها، لأنها تحتوي على ألفاظ أو عبارات خالية من المعنى، "أي إنها لا ترسم سلوكاً معيناً". أو بمعنى آخر لا يكون موضوعها ممّا يدخل في حدود الخبرة البشرية فعلاً أو إمكاناً . والمشكلات الزائفة عند (بيرس) هي القضايا الميتافيزيقية، والتي لا تكون لها دلالة في عالم الأشياء والمحسوسات. إن هدف البرجماتية فيما يقول بيرس هو إظهار أن كل قضية من قضايا الميتافيزيقا هي إما خالية من المعنى أو أنها قضية مضلّة ، وبالتالي ينبغي استبعادها، بحيث لا يتبقّى في الفلسفة إلا مجموعة من المشكلات التي يمكن البحث فيها باستخدام

مناهج الملاحظة الخاصة بالعلوم الصادقة“ (عزمي إسلام ، ص ص 98-99) أي منهج التحقق التجريبي.

ثانياً- المعنى ومبدأ التحقق التجريبي:

يعرف ”شليك“ مبدأ التحقق قائلًا : “معنى القضية هو منهج تحققها ” ويقول فايزمان : « لكي يحصل المرء على فكرة عن معنى القضية، فمن الضروري أن يكون واضحًا بشأن الإجراء الذي يؤدي إلى تحديد صدقها، وإذا لم يعرف المرء هذا الإجراء، فلا يمكن له أن يفهم القضية أيضا ... إن معنى القضية هو منهج تحققها» (صلاح إسماعيل، ص 27) وعلى أساس هذا المبدأ يقسم الوضعيون المناطق أنواع القضايا ذات المعنى إلى:

1 - قضايا تحليلية (وهي قضايا المنطق والرياضيات) والتي لا يضيف فيها المحمول خبرا جديدا للموضوع .

2 - قضايا تركيبية وهي التي يمكن التحقق من معناها وصدقها عن طريق مبدأ التحقق. وهذان النوعان من القضايا هما مدار تركيزهم وبحثهم باعتبارهما القضايا التي تحمل معنى، بحيث يمكن الحكم عليهما بالصدق أو بالكذب، فالصدق في القضايا التحليلية يكون تحصيل حاصل، وفي القضايا التركيبية صدق تجريبي يعتمد على المقابلة مع الواقع الخارجي (زكي، ص 79). وعلى هذا الأساس تم رفض قضايا الميتافيزيقا لأنها ليست قضايا رياضية ولا قضايا تجريبية، ولهذا يقول (أير): «إن كل ما أثبتته هو أن قضايا الميتافيزيقا لا تقع في فئة القضايا الرياضية أو التجريبية.... وأنه لا يترتب على ذلك أن تكون الميتافيزيقا ليست صادقة أو كاذبة، ناهيك عن أن توصف بأن لا معنى لها» (Ayer: 1959 pp 3) (10).

ويرتبط مبدأ التحقق عند الوضعية المنطقية بالتمييز بين ما هو تحليلي وما هو تركيب، ويشير د/صلاح إسماعيل إلى أن التمييز بين ما هو تحليلي وما هو تركيبى يعد ملمحاً هاماً من ملامح الفلسفة التحليلية قائلًا: “لعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا أنه الملمح الرئيسي الذي لا ترتبط به الملامح الأخرى فحسب، بل وتنتج عنه أيضا، ومن قبيل هذه الملامح القول بأن الفلسفة علمية والقول بأن الميتافيزيقا لغو“ ، غير أن هذا التمييز قد تعرض منذ العقدين الخامس والسادس من القرن الماضي لانتقادات عنيفة ظهرت ظهورا أساسيا ومنهجيا في كتابات كل من (كواين، ومورتن وايت، ونيلسون جودمان)

والتمييز بين التحليلي والتركيبى نجده قبل الوضعية المنطقية عند “كانط“ ؛ حيث يضع لنا في مقدمة “نقد العقل الخالص“ نوعين من التمييز: الأول هو التمييز بين ما هو أولي،

وما هو بعدي، والثاني هو التمييز بين ما هو تحليلي وما هو تركيب. ويذهب (كانط) إلى أن المعرفة الأولية هي أية معرفة تكون مستقلة عن التجربة ومستقلة عن كل انطباعات الحواس، وعندما يقول (كانط) إن المعرفة الأولية هي المعرفة المستقلة عن التجربة فإنه يعني أنها مستقلة عن أية تجربة كائنة ما تكون. ولعل إعادة الصياغة الدقيقة لعبارة (كانط) السابقة هي "ليست كل معرفتنا بحاجة إلى التحقق منها عن طريق الرجوع للخبرة الحسية".

ويري (وليم ج ليكان) أن نظرية التحقق في المعنى التي انتشرت على يد الوضعيين المناطق كانت مهمة بالكيفية الأساسية للعبارات الفارغة من المعنى لأنهم شكوا في أن الكثير من الأقوال الماضية التي لها معنى في كتب الفلاسفة الكبار السابقين لم تكن كذلك في الحقيقة، بل لم يكن لها معنى على الإطلاق، بصرف النظر عن صدقها. لذلك فإن مبدأ التحقق كان يستخدم على أنه برهان للتمييز بين ما له معنى وما ليس له معنى. وتكون العبارة لها معنى إذا وإذا كانت فقط هناك مجموعة من الخبرات الممكنة لشخص ما تميل إلى إظهار أن هذه الجملة كانت صادقة، ونسعى هذا شرط التحقق. والجملة أيضا يكون لها شرط القابلية للتكذيب، عندما توضح الخبرات الممكنة أنها تميل لتكون كاذبة، لكن إذا كنا نفحص جملة ما ونعجز عن أن نقرر ما إذا كانت الجملة صادقة أم كاذبة وفقا لهذه الخبرات فإن الجملة تكون فارغة من المعنى، والأمثلة كثيرة على ذلك.

لقد أدرك الوضعيون المناطق أن نقد الميتافيزيقا الذي قد يؤدي ثماره لا بد أن يكون منصبًا على لغة الميتافيزيقي وليس أفكاره، لغته وليست مقدماته أو نتائجه، ففي نهاية الأمر الأفكار يتم التعبير عنها بلغة، ونقد اللغة ذاتها كفيلا بأن ينقد الفكر الميتافيزيقي نفسه، وهو ما يشير إليه (أير) بوضوح، حين يؤكد أنه لا يمكن نقد الميتافيزيقا من خلال أفكارها، أو من خلال العلاقة بين مقدماتها وما تصل إليه من نتائج، لأنه من الممكن أن يصل الإنسان إلى نتائج صحيحة من خلال مقدمات باطلة، أو يصل إلى نتيجة صحيحة من خلال استدلال فاسد، ومن هنا كانت الطريقة الوحيدة في نظره للهجوم على الميتافيزيقا تتمثل في الهجوم على طبيعة اللغة الميتافيزيقية نفسها، والتي لا يمكن التحقق منها سواء بالصدق أو بالكذب، فالاعتراض على الميتافيزيقي من خلال عالم التجربة فقط ليس دليلا كافيا على دحض الميتافيزيقا. يقول (أير): "هذا الاعتراض ربما يتم إنكاره من جانب الميتافيزيقي والذي سوف يؤكد على أنه يعتمد على حدسه العقلي والذي يخول له أن يعرف وقائع لا تتركن إلى عالم الخبرات الحسية. وحتى لو كان واضحا أنه يعتمد على فروض تجريبية، ومغامرته للدخول في العالم اللا تجريبي كانت على الرغم

من ذلك غير مبررة منطقياً، فإنه لا يجب أن يتبع ذلك أن تأكيدات التي صنعها بخصوص هذا العالم اللا تجريبي لا تكون صحيحة. لأن حقيقة أن النتيجة لا تلزم عن مقدماتها غير كافية لإثبات أنها باطلة. وبالتالي لا يستطيع أحد أن يطيح بالنسق الميتافيزيقي فقط بنقد الطريقة التي ظهر بها للوجود. ما هو مطلوب هو نقد طبيعة الجمل التي تتضمنها، وهذا هو الطريق الذي علينا اتباعه. لأنه يجب أن نتذكر أنه لا توجد جملة تشير إلى (واقعة) تتجاوز حدود كل خبرة حسية ممكنة يمكن أن يكون لها أي دلالة حرفية، والذي منه يجب أن ينتج أن مجهود أولئك الذين كرّسوا أنفسهم لوصف هذه الواقعة قد كرّسوا أنفسهم في الحقيقة للحديث عما ليس له معنى“.

من خلال لغة الميتافيزيقي وصيغته النحوية يمكن بسهولة أن يُعمل الوضعي منهجه لينال من الميتافيزيقي، يقول “أير”: “المثال الأوضح والأسهل على الطريقة التي تؤدي فيها اعتبارات النحو إلى الميتافيزيقا هي حالة التصور الميتافيزيقي عن الوجود، أصل إغرائنا بإقامة أسئلة عن الوجود — والتي لا تمكّننا أي خبرة معرفية من الإجابة عليها — يكمن في حقيقة أن في لغتنا [الجمل التي تعبر عن قضايا وجودية، والجمل التي تعبر عن قضايا نعتية (attributive)] ربما يكونا على نفس الصيغة النحوية. على سبيل المثال الجملة التي تقول: إن (الشهداء موجودون) و(الشهداء يعانون)، كلاهما يتكون من إسم يتبعه فعل لازم (intransitive). وحقيقة أن كلاهما له نفس الصيغة النحوية التي تؤدي إلى أن يفترض البعض أنهما من نفس نوع الصيغة المنطقية. لكن كما أشار كانط، الوجود ليس صفة تُعزى إلى شئ، لأنه عندما ننسب صفة إلى شئ، نحن ضمناً نؤكد وجوده: لذلك لو كان الوجود نفسه يعزى إلى الشيء، سوف يتبع ذلك أن كل القضايا الوجودية الإيجابية هي محض لغو، وكل القضايا الوجودية السلبية متناقضة ذاتياً؛ وليست هذه هي الحالة، لذلك فإن أولئك الذي يقيمون أسئلة عن الوجود أسسوا ذلك على أساس افتراض أن الوجود صفة تُعزى إلى شئ، هم مذنبون باتباع قواعد النحو أكثر من أتباعهم لحدّ الحس“ (Ayer 1952 pp.24 – 25).

وهكذا فمن الممكن أن يصل الميتافيزيقي — من وجهة نظر الوضعيين — إلى مجموعة من الحقائق، لكنها في النهاية حقائق خاصة به، ولا يجوز إنكارها أو الهجوم عليها إلا عندما يعرضها للآخرين وكأنها حقيقة، وهنا يكون للتحقق دوره في الهجوم على الميتافيزيقي من خلال اللغة المستخدمة، ولا يهتم الطريقة التي يصل بها الميتافيزيقي إلى حقائقه الخاصة، ولكن ما يهم هو إمكانية إخضاع هذه الحقائق لشرط التحقق التجريبي. ويظهر هذا الأمر بوضوح عند “أير” في حقائق المتصوف، حيث يقول: “ربما يحتج المتصوف بدوره بأن

حدسه يلهمه الحقائق ، على الرغم من أنه لا يستطيع أن يوضح للآخرين ما هي هذه الحقائق ، وأن أولئك الذين نحن منهم والذين لا يملكون هذا الحدس لا يملكون خلفية يمكن على أساسها إنكار أن هذه وظيفة معرفية. لأننا نستطيع بصعوبة أن نقبل أولاً أنه لا توجد هناك طرق لاكتشاف قضايا صحيحة غير تلك التي نوظفها بأنفسنا (صلاح إسماعيل، ص45). يوضح آير انه لا ينكر — بأية طريقة — أن حقيقة تركيبية يمكن أن تكتشف من مناهج حدسية محضة مثلما يحدث في المنهج العقلي للإستقراء. بينما يرفض إقرار أن أي قضية تركيبية — بصرف النظر عن الطريقة التي تم التوصل بها إليها — يجب أن تخضع لاختبار الخبرة الفعلية. بمعنى آخر فإن آير لا ينكر أولاً أن المتصوف قادر على اكتشاف حقائق من خلال منهجه الخاص. بل ينتظر ما هي القضايا التي تجسد اكتشافه ليتمكن من الحكم عليها ما إذا كانوا مقبولة أو مرفوضة من خلال ملاحظاته التجريبية. و طالما أن المتصوف بعيد جداً عن أن يقدم قضايا قابلة للتحقق تجريبياً ، و هو غير قادر على أن يقدم قضايا مقبولة على الإطلاق. لذلك فإن حدسه لم يوح إليه بأية وقائع و، لا فائدة من قوله إنه يدرك حقائق لكنه غير قادر على التعبير عنها لأننا نعرف لو أنه قد توصل فعلاً إلى أي معلومات فعلية سيكون قادراً على التعبير عنها و سيكون قادراً أن يشير بطريقة أو بأخرى كيف أن أصالة اكتشافه يمكن أن تُحدّد تجريبياً.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : ما مدى فاعلية ومصادقية مبدأ التحقق في المعنى الذي استند إليه أنصار الاتجاه الوضعي في حذف جمل الميتافيزيقا ؟ وهل يمكن رفض هذه الجمل نسبة لهذا المبدأ ، ثم كيف يتم التعامل مع جمل اللغة ذات البعد المعيارى؟ تتطلب الإجابة على تلك الأسئلة بيان أهم الاعتراضات التي وُجّهت لمبدأ التحقق .

اعتراضات على مبدأ التحقق في المعنى:

يذهب «وايت (White)» إلى أن مبدأ التحقق كمنهج "ليس معياراً للمعنى بأي حال و إنما هو معيار مقترح نستطيع بواسطته أن نقرر ما إذا أمكن تصنيف الجملة المعطاة على أنها جملة تجريبية أم لا" (White . P. 66) أي أن هذا المعيار لم يثبت كفاءته المطلقة ليكون هو المعيار الأوحد لقياس عبارات اللغة والحكم عليها بالصدق والكذب إنما هو معيار مقترح ويمكن أن يكون له البديل ، ودليل إمكان إيجاد البديل له ما يذكره "آير" بخصوص هذا المبدأ ، والذي قال عنه إن "كل ما أثبتته هو أن قضايا الميتافيزيقا لا تقع في فئة القضايا الرياضية أو التجريبية. .. وأنه لا يترتب على ذلك أن تكون الميتافيزيقا ليست صادقة أو كاذبة، ناهيك عن أن توصف بأنها بلا معنى" (Ayer . 1959 , pp. 3-10). إن فلاسفة الوضعية

المنطقية قد سلّموا بمبدأ التحقق باعتباره اعتقاد، وعيب هذا المبدأ أنه يجعل المرء الذي يأخذ به يعنى عن الإهتمامات والتوجيهات التي يمكن أن تكون للتساؤلات الميتافيزيقية ، ومن بين هذه الإهتمامات والتوجيهات والتساؤلات تلك المتعلقة بفكرة العقيدة التي خُلق الإنسان ليملاً بها، والتي يكون حذفها نسبة لهذا المبدأ أمر غير مقبول. ثم إنه كيف لهذا المبدأ أن يبعد قضايا الميتافيزيقيا ويحكم عليها بالخلو من المعنى إذا لم يدرك معناها إدراكا كاملا، وطالما أنه يدرك معناها فكيف يحكم عليها بالخلو من المعنى، بذلك فإنه من الأولى الحكم على منهج التحقق بالقصور في إدراك مسائل الميتافيزيقا .

لقد أدرك الوضعيون المنطقة الصعوبات التي يتعرض لها مبدأ التحقق في المعنى، ولم تتشأ هذه الصعوبات والانتقادات من خارج الوضعية المنطقية فحسب، بل من داخلها أيضا، فنجد أن أير مثلا لجأ إلى التخفيف من حدة هذه الإعتراضات بالتمييز بين التحقق بالمعنى القوي والتحقق بالمعنى الضعيف، يقول أير: هناك تمييز إضافي يجب أن نقوم به وهو التمييز بين المعنى القوي والمعنى الضعيف لمصطلح قابل للتحقق (verifiable)، يقال إن القضية قابلة للتحقق بالمعنى القوي للمصطلح إذا وإذا فقط كان صدقها مؤسس بشكل حاسم في الخبرة. وتكون قابلة للتحقق بالمعنى الضعيف إذا كان ممكن للخبرة أن تضمنها على أنها محتملة“ (Ayer . 1952 . p.18) ونجد أير يفتح إمكانات أخرى أمام التحقق قائلا: “إن معيار القابلية للتحقق ليس هو الحل النهائي والحاسم في تعريف المعنى، وأن من حق أي فرد أن يتبنّى معيارًا مختلفًا للمعنى، وأن يتيح تعريفا بديلا يراه مناسباً وصالحاً للاستخدام“ (Ibid. p.15).

ويشير أير إلى اعتراضات أخرى على مبدأ التحقق ومنها أنه لا يتضمن حالة الجمل التي لا تعبر عن قضايا ، والتي لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو بالكذب ، مثل الجمل والعبارات الأخلاقية أو الجمالية، فيقول: “يفترض أن مبدأ التحقق يزودنا ببرهان يمكن من خلاله تحديد ما إذا كانت الجملة لها معنى، والطريقة البسيطة لصياغته هي أننا نقول : إن الجملة يكون لها معنى إذا وإذا فقط عبرت عن القضية بطريقة قابلة للتحقق تجريبيا أو تحليليا . وكثيرا ما تم الإعتراض بأنه إذا كانت الجملة لها معنى لغوياً، فإنها لا تعبر عن قضية، لأنه افترض على نحو عام أن كل قضية هي إما صادقة أو كاذبة، ولنقل إن الجملة تعبر عما إذا كانت صادقة أو كاذبة يجب أن تقول بالضرورة أن لها معنى لغوياً. ووفقا لذلك لو كان مبدأ التحقق صيغ بهذه الطريقة، فربما يبرهن على أنه ليس مكتمل فقط كاختبار للمعنى، حيث أنه لم يتضمن حالة الجمل التي لا تعبر عن أي قضايا على الإطلاق“ (Ibid . pp . 171 . 172) .

إن قبول القضايا التكرارية لدى الوضعية المنطقية يعد في ذاته تخفيفاً من الشرط التجريبي، وبالتالي توسيعاً لمبدأ التحقق، فلقد سمح الوضعيون بفئة خاصة من الجمل ليس لها محتوى تجريبي ولكن على الرغم من ذلك فلها معنى، فهذه الجملة صادقة بالتعريف وفقاً للمصطلحات التي يتركب منها هذا التعريف مثل قولنا بأن: (الرجل الأعزب غير متزوج)، أو (إذا كان الثلج يسقط فإن الثلج يسقط)، أو الجملة: (إن خمسة أقلام أكثر من قلمين). إن مثل هذه العبارات لا تشير إلى تضمينات تجريبية بالنسبة للوضعيين، لأنها صادقة بصرف النظر عما يحدث في العالم، لكن لها معنى لأنها صادقة، ولأن صدقها يتوقف على الكلمات التي تتألف منها هذه العبارات، وهذه العبارات هي العبارات التحليلية. (William 1980 . p.100)

وبجانب التمييز بين التحقق بالمعنى الضعيف والتحقق بالمعنى القوي نجد "أير" يلجأ إلى تمييز آخر، وهو التمييز بين قابلية التحقق الفعلي (practical verifiability)، وقابلية التحقق من حيث المبدأ (verifiability in principle)، حتى لا يستثني القضايا التي تحمل في ذاتها إمكانية التحقق في المبدأ، على الرغم من أننا نكون في وقت ما غير قادرين على التحقق منها فعلياً، مثل جملة (توجد حياة على كوكب بلوتو) هي بالنسبة "لأير" جملة لها معنى، وإن كان ليس لها قابلية للتحقق الفعلي، إلا أنها تحمل في ذاتها إمكانية التحقق من حيث المبدأ. يقول "أير": "في المقام الأول من الضروري أن نميز بين إمكانية التحقق العملية وإمكانية التحقق في المبدأ، فكلنا نفهم ببساطة ونؤمن - في كثير من الأحيان - بقضايا لم نتمكن من التحقق منها. الكثير من هذه القضايا، يمكننا التحقق منها لو تجشمتنا عناء كاف، لكن يبقى هناك عدد من القضايا الدلالية تتعلق بموضوعات واقعية لا نستطيع أن نتحقق منها حتى لو أردنا ذلك، لأننا نفتقر ببساطة لأن نضع أنفسنا في الموقف (الموضع) الذي تكون فيه ملاحظتنا مناسبة. والمثال السهل والمألوف على مثل هذه القضية هي قضية (أن هناك جبال في الجانب الأقصى من القمر)، و لم يتم اختراع صاروخ حتى الآن يمكنني من الذهاب إلى الجانب الأقصى من القمر، وبالتالي أنا غير قادر على تقرير الموضوع بالملاحظة الفعلية. ولكنني أعرف ما هي الملاحظات التي تجعلني أقرّ هذه القضية على أنها مقبولة نظرياً ويمكنني التحقق منها حالما أكون في موضع يمكنني من ذلك. وبناء على ذلك أنا أقول إن القضية قابلة للتحقق في المبدأ لو كانت غير قابلة للتحقق عملياً. لكن من ناحية أخرى مثل أشباه الجمل الميتافيزيقية هذه كالتي تقول: (المطلق يحوي ذاته، وهو في نفسه غير قادر على النشوء والارتقاء)، ليست

قابلة للتحقق حتى من حيث المبدأ، لأن الواحد منا لا يعرف ما هي الملاحظة التي يجب أن يقوم بها ليعرف ما إذا كان المطلق يفعل ذلك أم لا" (Ayer 1952, pp 16-17).

والجدير بالذكر أن "آير" طور من موقفه الراض للعبارات الميتافيزيقية كما أوضح في كتابه "ثورة الفلسفة" فيقول: "بالنظر إلى عبارات القيمة، الشيء الوحيد المستثنى استنادا إلى مبدأ التحقق هو وجهة النظر الميتافيزيقية، فهي وصفية لعالم القيم، وتوجد بطريقة أو بأخرى مستقلة عن عالمنا الطبيعي" (Ayer, 1956, p75) وتبعه في هذا "كارناب" حيث يقول: «نحن لا نعتبر الميتافيزيقا محض خيال أو قصصاً خيالية.. فالعبارات الميتافيزيقية لا تتعارض مع المنطق، بل فقط مع الخبرة، وأن قضاياها ذات معنى رغم إنها قضايا باطلة" (محمد سليم محمد حفني، 2003 ص233).

لكن هذا التطور الذي حققه كل من "آير" و"كارناب" لم يمنع عنهم الكثير من انتقادات فلاسفة التحليل؛ فيذهب "رسل" إلى أن مبدأ التحقق و الذي مؤداه "معنى القضية هو منهج تحققها" من شأنه استبعاد قضايا مؤكدة إلى حد كبير مثل "أحكام الإدراك"، فلا يوجد منهج تحقق لهذه القضايا، بل على العكس تشكل هذه القضايا تحققات لكل القضايا التجريبية المألوفة" (Russel, 1943 p 308).

أما "كارل بوبر" فيقول: «لو نجح معيار المعنى أو المغزى في استبعاد الميتافيزيقا ويقصد معيار التحقق- سوف يلقي بكل النظريات العلمية في سلة المهملات التي ألقينا فيها الميتافيزيقية الخالية من المعنى، حيث إن كل النظريات الفيزيقية تقول أكثر مما يمكن اختباره. فإذا كان يصعب الاستعانة بهذا المعيار على تأييد نظريات العلم المجردة التي يصعب اختبارها أو تكذيبها، فكيف نسمح لأنفسنا بأن نستبعد الميتافيزيقا للسبب نفسه" (د. السيد نفاذي، 2002، ص71). بل نجد "جون ديوي" ينتقد ما ذهب إليه "بيرس" فيقول: "ليس بإمكان المرء استبعاد العبارات الميتافيزيقية تماماً إلا إذا أدرك معناها إدراكاً كاملاً، لا بأن يثبت خلوها من المعنى" (محمود رجب، ص، 242).

و سوف نعرض لأهم الاعتراضات التي انصبت على مبدأ التحقق باعتباره نظرية في المعنى وهي الاعتراضات التي أوردها "وليم ليكان" في كتابه (فلسفة اللغة) (William, 1980, pp 100-106)

1. الاعتراض الأول :

يتعلق مبدأ التحقق بما يسميه الوضعيون باللغة التصويرية، أو لغة وصف الواقع descriptive or fact-stating language، ولكن اللغة التصويرية أو لغة وصف الوقائع هي فقط

نوع واحد من اللغة . فنحن أيضا نسأل أسئلة ونعطي أوامر، ونكتب الأشعار، ونخبر النكات، ونقيم طقوساً من أنواع متعددة وهكذا. ومن المفترض أن أي نظرية في المعنى يجب أن تُطبَّق على كل هذه الاستخدامات للغة، حيث أن كلها استخدامات لها معنى في لغة الحياة اليومية لذلك من الصعب أن نرى أن مبدأ التحقق في المعنى يمتد ليشمل هذه الاستخدامات“ (Ibid . p.101) .

ويتساءل ”ليكن“ كيف يمكن أن يبرهن الوضعي المنطقي على حبه من خلال مبدأ التحقق، أو التعبير عن مشاعره الجمالية أو الأخلاقية، وكيف يمكن أن يتحقق عن سؤال قد يسأله لصديقه؟ وفي تصورنا الخاص أنه لو أخلص الوضعيون المناطقة لمبدأ التحقق لاعتبروا أن كل ما يقولونه في حياتهم اليومية هو كلام فارغ من المعنى. وقد يكون هناك رد على هذا الاعتراض مؤداه أن مبدأ التحقق في المعنى كان في الأساس مبدأً لاستبعاد العبارات الميتافيزيقية من العلم وليس مبدأ يمكن تطبيقه على عبارات اللغة في الحياة اليومية ، ولكن حتى في العلم ذاته أصبح التحقق بهذا الشكل أمراً شبه مستحيل في بعض النظريات العلمية المعاصرة مثل النسبية والكوانتم.

2. الاعتراض الثاني:

افترض أن لدينا مجموعة معطاة من الكلمات ، ونسأل عما إذا كانت قابلة للتحقق وما الذي يمكن أن يؤكد صدقها. حتى نفل ذلك يجب أن نكون على علم بما تقوله الجملة، كيف يمكن أن نعرف ما إذا كانت قابلة للتحقق إذا لم نكن نعرف ماذا تقول ؟ لنحدد كيف نتأكد من وجود فيروس ، أقول : لابد أن نعرف ما هو الفيروس ؟ وأين يمكن أن يوجد بشكل عام، وهنا يبدو أننا نفهم الحديث عن الفيروسات حتى نتمكن من الحكم عليها. لكن لو أننا نعرف بالفعل ماذا تقوله جملتنا، فمن ثم يكون هناك شئ نقوله. وهي في هذا النطاق يكون لها بالفعل معنى، وعلى ذلك فإن السؤال عن القابلية للتحقق وشروط التحقق تمثل تصوراً بعيداً، أي بعد معرفة ماذا تعنيه الجملة ومن هنا يبدو أننا لابد أن نعرف ما تعنيه الجملة حتى نعرف كيف نتحقق منها ، وهذا عكس ما تقوله نظرية التحقق“ (Ibid . p. 102).

3. الاعتراض الثالث:

الجمل العلمية عن الإلكترونيات وآثار الذاكرة والمجرات الأخرى تمثل محض ملاحظات لمجموعات معقدة من الجمل عن معلومة اكتشفناها في المعمل. ما هو شرط التحقق لجملة

عن الإلكترون؟ بالتأكيد شيء ما يرى بالعين المجردة ، شيء ما يتعلق بقراءات قياسية أو انتشار البخار كسحابة في غرفة أو أشكال مبعثرة على قطب سالب في أنبوب شعاع أو شئ ما من هذا القبيل. هذا قابل للملاحظة بالعين المجردة هنا. والآن هل نعتقد فعلاً أننا عندما نتحدث عن الأجسام دون الذرية فنحن لا نتحدث عن جسيمات صغيرة جداً - صغيرة للغاية لدرجة أننا لا نستطيع أن نلاحظها- لكننا نتحدث عن قراءات قياسية أو انتشار الدخان وهكذا؟ فأنا أعتقد أن مثل هذه الملاحظات خيالية. (Ibid . p. 103) ونضيف على ذلك أنه في مجال العقل الإنساني، فإن ما يمكن الحديث عنه فقط وفقاً لمبدأ التحقق هو السلوك الظاهر، ولكن ما الذي يحكم بأن السلوك الظاهر يكون مطابقاً بشكل كامل لأفعال العقل؟ إن التمسك بمبدأ التحقق في مجال السلوك البشري قد يؤدي إلى العديد من النتائج الباطلة، فهل من الممكن أن تؤدي الملاحظة لسلوك الآخرين تجاهنا أن نعرف بالضبط إن كانوا يكتنون لنا تقديراً أم لا؟!

4. الاعتراض الرابع:

كيف يمكن أن يُطبَّق مبدأ التحقق على نفسه ؟ سواء كان يمكن التحقق منه تجريبياً أم لا؟ ولو كان غير قابل للتحقق، من ثم سيكون إما محض فارغ من المعنى، أو أنه حقيقة تحليلية أو تكرارية فارغة. وبعض الوضعيين أخذوا المبدأ على أنه تعريف اتفاقي نافع لكلمة (المعنى). بالطبع، أي فيلسوف يمكنه أن يتوابع على أي شئ في أي وقت، لكن كيف يساعد ذلك أولئك الذين يسعون لنظرية في المعنى صحيحة وموثوق فيها بالفعل كما هي؟ (Ibid . p. 104)

5- الاعتراض الخامس:

عرض "أبروين" حجة يعرض من خلالها أن أي جملة قابلة للتحقق بشكل عادي وبنفس الطريقة. افترض أن لدينا ماكينة عجيبة الشكل تقوم بدور عراف ذكي، أعني عندما يشفر شخص ما جملة على كارت ويضعه في فتحة الماكينة فإن الماكينة تضئ وتصدر صوتاً وتقدم لنا الإجابة (صادق) أو (كاذب). وافترض بالإضافة إلى ذلك أن الماكينة بقدر ما استطعنا مراجعتها فهي دائماً صحيحة على نحو معجز. فكّر الآن في أي اختيار عشوائي من الكلمات (س). المجموعة التالية من الخبرات يجب أن تكفي لإعلان احتمالية (س) باتفاق إلى أقصى حد:

● نشفر س على الكارت.

- نضع الكارت في الماكينة .
- تكتب لنا الماكينة (صادق) .

وتذكر أن الماكينة لم تخطئ أبداً في يوم من الأيام، لأن هناك مجموعة من الخبرات الممكنة التي تؤكد (س)، حتى لو كانت (س) محض لغو. وشرط التحقق الخاص من (س) أن تشفر وتوضع في الماكينة، والماكينة تكتب لنا (صادق). وهكذا تفهم نظرية التحقق، حيث أن كل مجموعة من الكلمات قابلة للتحقق (Ibid. p 104). وتشير هذه الحجة إلى نقد هام لمبدأ التحقق يتمثل في قبول الجمل الكاذبة كذبا مطلقا ومع ذلك يكون لها أولوية التعرض لمبدأ التحقق عن جمل قد يكون لها رسوخها في مجال استخدامها الخاص إلا أنها بمعيار مبدأ التحقق لا يكون لها معنى، فقد تكون «س» محض لغو مثل قولنا بأن (قلم أكثر من قلمين) أو (إن الدراجة أسرع من الطائرة) إلا أن هذه الجمل وفقا للماكينة هي جمل صحيحة لأنها ذات معنى يمكن الحكم عليها بالصدق أو بالكذب، أما جمل من قبيل أن (المطلق يوجد خارج العالم) أو (أنه يحوي ذاته) هي جمل كاذبة بالنسبة للماكينة السابقة.

6- الاعتراض السادس:

يعتمد مبدأ التحقق بشكل أساسي على الملاحظة، وهنا تكمن مشكلتان: المشكلة الأولى: مفهوم (الملاحظة المباشرة) ينبغي الوقوف عنده طويلا، هل الملاحظة البصرية تكون مباشرة عندما يتم النظر من خلال نظارة؟ وماذا عما إذا كنا ننظر من خلال نظارة معظمة؟ وماذا عن الميكروسكوب؟ أو عن الميكروسكوب الإلكتروني؟ والمشكلة الثانية: هي الملاحظة والجمل التي تتكون منها (لغة الملاحظة)، هل النظريات ترتكز على ما الذي يُظن أنه ملاحظة، وما الذي يُظن أنه قد تمت ملاحظته، وكيف يتم تحديد المعلومة...!! هل هذا كله يتم تحديده من خلال مبدأ التحقق (Ibid. p 105).

7- الاعتراض السابع:

وفقا "لبير دويم" بيرهن "كوإين" على أنه لا توجد جملة مفردة لها شرط تحقق مميز، إلا من خلال ربطها بمجموعة من الخبرات النظرية التي يعارضها اختبار (ما هو قابل للملاحظة) وسوف يستغرق الأمر بعض الشرح: هناك فكرة أصيلة لدى الناس عن العلم، وهو أن العالم يضع فرضا ما ثم تأتي التجربة للتحقق من هذا الفرض. ويشير "دويم" إلى أنه في تاريخ العلم لا توجد تجربة بمفردها يمكن أن تدعم أو ترفض الفروض. والسبب في ذلك أن هناك دائما مجموعة كبيرة جدا من الافتراضات المساعدة تربط

بين الفرض والأدوات التجريبية. أحيانا يتم رفض الفروض على نحو غير صحيح، لأن العلماء يكون لديهم فروض أخرى تمت معالجتها، وهي الفروض التي قد لا تزال موضع نقاش بل قد تكون خطأ بشكل ما. افترض أننا نقوم ببحث في علم الفلك وأننا نقوم بالموافقة على أشياء أو رفضها من خلال إجراء ملاحظة معقدة بالتليسكوب الضخم، وفي استخدامهم للتليسكوب يستحضر الفلكيون ضمناً كل الفروض عن النظريات البصرية. ويتحول "دويم" إلى عبارات اللغة العادية، اختر أي عبارة تتحدث عن موضوع فيزيائي في اللغة العادية، ولتكن (يوجد كرسي على رأس المائدة) فما هو شرط التحقق التجريبي من هذه العبارة؟ ربما يقترح قائل: إن الشرط التجريبي هو أنك لو دخلت من هذا الباب هنا سوف ترى الكرسي على رأس المائدة، ولكن حتى مع ذلك يفترض أيضاً أن هذا يعتمد على ما إذا كانت عينيك مفتوحة. ويعتمد أيضاً عما إذا كانت وظيفة العين نفسها سليمة أم لا، وعما إذا كان الضوء في الحجرة مضاء أم لا...ويمكننا أن نستمر في ذلك لأيام" (Ibid . p 106). ملخص ما يسعى إليه دوهم وكواين في هذا الاعتراض تطبيق ما يسمى بالنزعة الكلية (صلاح إسماعيل، ص ص 78-88)، وملخصها الآتي: "لا يمكن أن يعرض الفيزيائي أبداً الفروض المنعزلة للاختبار التجريبي، وإنما يعرض فقط مجموعة كاملة من الفروض لهذا الاختبار، وعندما لا تجيء التجربة متفقة مع تنبؤاته، فإن ما يعلمه هو أن فرضاً واحداً علي الأقل من الفروض التي تشكل هذه المجموعة غير مقبول ويجب تعديله، ولكن التجربة لا تحدد الفرض الذي لابد من تغييره" (صلاح إسماعيل، ص 83). أي أن الشرط التجريبي في التحقق يفترض مجموعة هائلة من الافتراضات السابقة على هذا الشرط التجريبي، قد تكون هذه الافتراضات نفسها معقولة، ولا تقبل التحقق التجريبي نفسه.

وهكذا أخذت الاعتراضات تتوالى، وجاء كل واحد منها بمثابة حجر عثر أمام قبول مبدأ التحقق واستعماله، وكانت هذه الاعتراضات قوية إلى الحد الذي أجبر أنصار المبدأ إلى التنازل تدريجياً عن كثير من الدعاوى التي ذهبوا إليها كما أشرنا، وليس من شك كما يقول د/ صلاح إسماعيل في أن الصيغ المعدلة للمبدأ مثل "التحقق بالمعنى القوي" والتحقق بالمعنى الضعيف" و"قابلية التحقق العملي" وقابلية التحقق من حيث المبدأ" قد أظهرت مدى افتقاره إلى الدقة المرومة فيما يوهم أنه معيار صارم للمعنى؛ ولقد دفع إخفاق نظرية التحقق في المعنى بعض الفلاسفة إلى البحث في نظرية الاستعمال عند فتنجشتين المتأخر وفلاسفة مدرسة أكسفورد. (صلاح إسماعيل، ص ص 28-29).

تعقيب :

— كان من نتائج نظرية التحقق في المعنى إبعاد الدين كأحد العلوم المعيارية وبالتالي إبعاد فكرة العقيدة التي لا يمكن تصور الوجود البشري بدونها ؛ «فكل عقيدة تتضمن لاهوتاً يعتبر إلى حد ما نوعاً من الميتافيزيقيا» (Barnes 1950 p. 29).

من خلال الإطار الفكري الرافض لقضايا الميتافيزيقا ذهب فلاسفة الوضعية المنطقية إلى: "أن المسمى واسمه ليسا شيئاً واحداً ، بل هما شيئان مختلفان أبعد الاختلاف ، وكل ما في الأمر أننا نتخذ من أحدهما رمزا ينوب عن الآخر في التفاهم . فليس (جبل المقطم) الذي هو بروز من الصخر في موقع معين من الأرض هو نفسه (جبل المقطم) الذي هو كلمتان مكتوبتان بالمداد على الورق كارثة الكوارث في تفكير الإنسان هي أن يجيء حديثه في حقيقته عن (كلمة) فيحسبه قد جاء عن (الشيء) الذي تسميه تلك الكلمة ، وذلك لأن كثيراً ما تكون الكلمة — التي هي مدار الحديث — اسماً بغير مسمى في عالم الواقع ، فيظن المتحدث أنه ما دام قد تحدث عن الاسم فقد تحدث عن المسمى، مع أنه لا مسمى هناك" (زكي محمود، ص 79). ولذلك يرى الوضعيون أن العلاقة بين الاسم والمسمى إنما هي اتفاق صرف ، فليس في أية لفظة في الدنيا سر خفي يحتم أن تدل عليه ، اللهم إلا ما قد تواضع عليه الناس من أن يكون صوت معين دالاً على شيء معين ، أو أن تكون صورة مدادية معينة دالة على شيء معين" (زكي محمود، ص ص 88-89)

في العصر الحديث تبني د/ زكي نجيب محمود نظرية الوضعية المنطقية في المعنى برمتها فيقول: "كالهرة التي أكلت بنيها جعلت الميتافيزيقا أول صيدي ، جعلتها أول ما انظر إليه بمنظار الوضعية المنطقية ، لأجدها كلاماً فارغاً لا يرتفع إلى أن يكون كذباً ، لأن ما يوصف بالكذب كلام يتصوره العقل ، ولكن تدحضه التجربة ، أما هذه فكلامها كله هو من قبيل قولنا : «إن المزاولة مرتها خمالة اشكار» — رموز سوداء تملأ الصفحات بغير مدلول — وإنما يحتاج الأمر إلى تحليل منطقي ليكشف عن هذه الحقيقة فيها" (زكي محمود، ص 41). ويقول أيضاً: "تستطيع أن تقول عن أي لفظة مما يرد في الميتافيزيقا ما شئت من صفات وخصائص ، بل قل عن كل لفظة من تلك الألفاظ صفة ونقيضها ، ولن تعدو حدود المنطق ، فلعلك ترى بعد ذلك عبث المناقشة في القضايا الميتافيزيقية" (زكي محمود، ص 199).

ولقد دفعت أراء الوضعية المنطقية ونظريتهم في المعنى والتي تبناها د/ زكي نجيب محمود العديد من المفكرين العرب إلى الهجوم ليس فقط على الوضعية المنطقية ولكن على الفلسفة التحليلية بأكملها ، يقول د/ توفيق الطويل : "ومن يمعن النظر إلى الموضوعات

التي تعالجها الفلسفة التحليلية لا تهزه مناقشتها التافهة التي لا تحمل من الناحية الاجتماعية معنى» (توفيق الطويل، 1967 ص 290). ، ويؤكد د/ عبد الرحمن بدوي هذا المعنى بقوله: "إن رد الفلسفة إلى مجرد تحليل الألفاظ هو أمر لا يستطيع أن يقرّ به أحد من الفلاسفة ولا يمكن الفيلسوف أن ينزل بمهمة الفلسفة إلى هذا الدور التافه الطفيلي» (عبد الرحمن بدوي، ص 29).

ويبلغ النقد الإنفعالي مداه لنظرية الوضعية المنطقية في المعنى واستبعادها للقضايا الميتافيزيقية في نقد د/ ثابت الفندي فنراه يقول: "وهكذا اضمحل تصور الفلسفة عند هؤلاء التحليليين إلى حد أنها أصبحت طفيلية على العلم، والعلم نفسه غني عن توضيحها. ورغم كل المحاولات السطحية لمدى ربع قرن من قبل الوضعية، لم تقم مثل هذه الفلسفة أبدا، بينما على النقيض انتعشت الميتافيزيقا في عصر هذه المدرسة الوضعية المريضة الحقودة، إن الأسف على استحالة الميتافيزيقا أصبح مستحيلا... ولم يعد أحد يقول اليوم مثل هذا الهراء: حقا إن هذه التيارات اللا فلسفية.. ليست لها أية نتيجة بناءة ومن ثم فلا تفضي إلى أية استنارة» (محمد الفندي، 1974، ص ص 272-273).

المراجع

- (1) د. زكي نجيب محمود، خرافة الميتافيزيقا، ص 5.
- (2) د. محمود رجب: الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين. الطبعة الثالثة، 1966، ص 5.
- (3) المرجع السابق، ص 10.
- (4) Ayer, A. J. Language, Truth and Logic, New York: Dover Publications, 1952 p 14
- (5) Stebbing, L.S. Logical Positivism and Analysis Cannual philosophy, British Academy, p 32
- (6) انظر فتجنشتين، رسالة منطقية فلسفية، الفقرات 4، 111 و 4، 112 و 4، 003 و 4، 003، ص 83-91
- (7) د. زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص 295.
- (8) د. محمد مدين، الحركة التحليلية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 38.
- (9) Ayer, A. J., Language, Truth and Logic, p 27)
- (10) فتجنشتين، رسالة منطقية فلسفية الفقرة 3، 324 ص 78
- (11) د. محمد محمد مدين، الحركة التحليلية في الفكر الفلسفي المعاصر ص 120
- (12) د. محمود رجب، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، ص 239
- (13) د. محمد محمد مدين، الحركة التحليلية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص 119

- (14) د. محمود رجب، الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، ص 240-241 .
- (15) د. محمد محمد مدين، المرجع السابق، ص 120 .
- (16) د. زكي نجيب محمود ، المنطق الوضعي، ص 41 .
- (17) Ayer . A. J. . Language , Truth and Logic , pp 2223-
- (18) د. عزمي إسلام : اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ، ص 98-99 .
- (9) د. صلاح إسماعيل: فلسفة اللغة والمنطق، دراسة في فلسفة كواين، ص 27 .
- (20) د. زكي نجيب محمود ، المنطق الوضعي، ص 79 .
- (21) Ayer: History of Logical Positivism movement , Allen and unwin press , London , 1959 pp 310-
- (22) د. صلاح إسماعيل ، فلسفة اللغة والمنطق، دراسة في فلسفة كواين، ص 45 .
- (23) William G. Lycan: Philosophy of Language , a Contemporary Introduction . Second Edition , Routledge , London and New York , 1980 p. 98
- 24) Ayer , A. J. . Language , Truth and Logic , p.14)
- 25) Ayer , A. J. . Language , Truth and Logic , pp.24 – 25)
- (26) د. صلاح إسماعيل ، فلسفة اللغة والمنطق، دراسة في فلسفة كواين، ص 45 .
- (27) White , A. R. A not on meaning and verification. P. 66F
- (28) Ayer; History of Logical positivism movement in A. J. press , and London: Allen and unwin , 1959 , pp. 310-.
- 29) Ayer , A. J. . Language , Truth and Logic , p.18)
- 30) Ibid. p.15)
- (31) Ibid. pp.171172-.
- 32) William G. Lycan: Philosophy of Language , p.100)
- 33) Ayer , A. J. . Language , Truth and Logic , pp 1617-)
- (34) Ayer , A. J. . The Revolution In Philosophy , Macmillan & Co LTD , London , 1956.p75)
- (35) رودلف كارناب ، حذف الميتافيزيقا عبر التحليل المنطقي للغة ، ضمن كتاب ” كيف يري الوضعيون الفلسفة ، ص 140-172 . نقلا عن محمد سليم محمد حفني ، مشكلة المعني بين آير وريل ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة جنوب الوادي – كلية الآداب بسوهاج ، إشراف أ.د محمد مهران رشوان و أ.د. نصار محمد عبد الله 2003. ص 233 .

(36) Russel , B. . An Inquiry Into Meaning and Truth , George Allen and Unwin LTD
 , London , 1943 p 308

(37) د. السيد نفادي ، "السيميوطيقا بين الفلسفة والعلم عند كارناب" ، مجلة عالم الفكر ،
العدد (1) ، المجلد 31 ، الكويت 2002 ، ص 71 .

(38) .محمود رجب: الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين ، ص 242 .